حيرة النفوس

في

مسألة الفلوس

حدثنا ابن عربان قال:

«بعد أن طَوّفْتُ في ربوع الشام وأرض الكنانة.. ومررت بتخوم لخم وغسان.. ونجود الأزد وعدنان.. وَصلْتُ أطراف الجزيرة، ونزلت سعة ورحباً في ديار الكرام...

وفي أمسية من أماسي المجالس العامرة... سمعت واحداً ممن سبقني في الوفود إلى هذه الديار ويدعى (أبا العيال)، يحدث صاحبه المكنّى بـ(أبي الهول).. ويقول:

«أكرمنا الله بالعمل في ربوع هذه الأرض الطيبة، فاستبدلنا غربتنا أنساً.. وضيقنا يسراً..

وحمدنا الله حمد من يدرك أنه مهما عَظُمَ الحمد والشكر فإنه لا يعدل ذرة من محيط النعم التي غمرنا بها فضل الخالق العظيم...

طِبْنا نفساً فيها ونحن نرقب العيال ينعمون بالطيبات.. يكبرون..، ويمرحون على سندس الشواطىء.. يتعارفون..، ويحلمون بالخيرات...

وازدادت نفوسنا طيباً مع سخاء هذه الديار.. الذي أبقى لدينا، فوق ما ننفق وننعم، فلسين من ادخار.. ينفعان في مقبل آت.. لا نعلم ما تخبئه لنا فيه الأقدار...»»

وأردف ابن عربان قائلاً:

«ثم سمعت أخانا أبا العيال يذكّر صاحبه أبا الهول في ذلك المجلس فيقول:

«وقد نصحتني يومها أن أشفع ادّخاري استثماراً فالادخار دون استثمار ـ كما شرحت لي ـ يدخل في نطاق الاكتناز المكروه، الذي يحرم الناس حقوقهم في تحريك المال ودورة الأعمال.. فضلاً عن أنه ـ قبل ذلك ـ سبب تآكل الفلوس وحسرة النفوس..

ثم بَيّنْتَ لي أن خير استثمار هو ما استقر في الأوطان.. دفعاً لغائلة الزمان..

وتمهيداً لعودة ترجى عندما يأذن الله ويحل الأوان..

وقد أقنعني رأيك السديد، وقمت أعمل بنصحك الرشيد..

حملت الفلسين إلى الديار..
وفي المطار.. بعد طول انتظار..
وحوار لم أبخل فيه ببيان حسن القصد والنية في إدخال المال قصد الاستثمار..
أعقبه اتصال.. ثم حوار.. ثم اتصال.. فحوار
فهمت أن إدخال الفلوس للأوطان ـ رغم حسن النوايا وطيب النفوس ـ لا يجوز إلا بعد اجتياز الفلوس حواجز معادلات صعبة للعملات الصعبة..

معادلات لا دخل فيها لحسن النوايا، ولا لنبل القصد أو صدق الطوايا..
فانصعت للمطلوب، وفوضت أمري لله ولقوانين الوطن، وقلت في نفسي إن أهل الديار أدرى باقتصاد الديار وبمصالحه الخاصة والعامة..
رغم أن تلك القوانين قد بدت لي وكأنها في وضع مقلوب لما شرحته لي عن أساليب ترغيب المال ونظم حسن الاستقبال، وفنون الدعوة للتمويل.. لدفع عجلات النماء، ورفع معدلات الرخاء..

توكلت على الله، ودخلت في دوامة المعادلات الصعبة في سبيل إدخال عملتي الصعبة..

وأمضيت إجازة كنت أطمح قضاءها في راحة واسترخاء: لفاً ودوراناً واستجداء..
من مكتب لمكتب، ومن دائرة لدائرة فيها: المال والاقتصاد.. الداخلية والخارجية.. الأمن والجمارك.. وبنوك مركزية وأخرى تجارية..

وتمت ـ بعون الله ـ عملية التحويل والإدخال.. تحويل وإدخال المال..

ولا أخفيك أن ذلك قد اقتضى التضحية ببعض من ذلك المال أثناء حشره حشراً، ودفعه دفعاً، في دهاليز المعادلات الملتوية التي تزداد ضيقاً بعد ضيق إن لم يُزَكَّ فيها مرور المال، بمراسم خاصة تبذل فيها النذور ويطلق البخور..

وبعد عناء ونصب، ثم وضع الفلسين في استثمار مضمون، بعقد مأمون، هان معه العناء والكبد.. ففي سبيل الوطن وأهل الوطن والديار يهون الجهد ويرخص المال..

وتَنَسَّمْتُ بعدها راحة البال.. وأخذت أعقد كل كبير من الآمال.. وعدت أنعم بخير الحاضر ومنى المستقبل الأمين بإذن من بيده نعمة اللطف والأمان».

قال ابن عربان:

«وبعدها سمعت أبا العيال يقول لصاحبه بحسرة واضحة تنم عنها نبرات حديثة:

«وما مرت ستتان وبضعة شهور حتى غدا الفلسان في الديار فلساً وخسرنا في استثمارنا النصفا

فعدت إليك أستوضحك ـ عما أصاب الفلوس من تدنٍ فاحش ونقص ملموس؟؟

فشرحت لي ـ وأساك ظاهر وواضح ـ أنني قد وقعت ضحية ما يدعى بالتضخم أو تدني قيمة النقود..

وأردفت مواسياً بأنني لست الوحيد من ضحايا هذه الظاهرة اللعينة، فهي آفة العصر ووباؤه، وسر تعاسته وشقائه..

وإنها الوجه الآخر لما يسود عالم اليوم من ظلم الربا والعياذ بالله..

وأنني رغم بعد استثماري عن مجالات الربا فقد أصابني غباره، مصداقاً لنبوة رسولنا المصطفى عن هذا الزمان الأغبر.. زمن الردة والعقوق.. عصر التخبط والفسوق..

وعندما استفتيتك عن مخرج من هذه الورطة.. وما إذا كان لي فيما آل إليه الأمر علاجاً ينفع أو شفاعة تشفع..

فهمت منك أن ليس لي إلا أن أطلب من الله الذي لا حول ولا قوة إلا به، العوض فيما فات والرجاء بما هو آت..

ونصحتني أن أُخرج من الأوطان ما بقي من الفلسين إن استطعت لها إخراجا..

قبل أن يقضي استمرار التضخم في الأسعار، والانهيار في عملة الديار على البقية الباقية منها..

وأملتني بأن نجد لهذه البقية الباقية من الفلسين ـ إن استطعت لها إخراجاً كما استطعت إدخالاً ـ مجالاً آخر للاستثمار أكثر استقراراً وأوفر ضماناً.. أجزل ربحاً وأدعى أماناً.. فنعوض بذلك ما أصابنا من خسران مع مبدأ الحرص على الاستثمار في الأوطان..

وقد وعدتني ببحث الأمر بجد ونشاط، بعد استجلاء للبيانات، وتقص للمعلومات.. واستخارة الأجهزة والحاسبات.. وسؤال أهل العلم والخبرة بالتنبؤات وأحوال البورصات..

أما أنا فقد رحت أسعى لإخراج ما بقي من الفلوس قبل أن تؤول إلى قرار ذلك المصير المنحوس..

قبل أن يطويها التضخم بردائه وتأكلها آفة العصر وسر بلائه..

عليّ أنتفع بما يسفر عنه استقصاؤك من أمل ورجاء يعوض ما أصاب أكثر من نصف الفلوس المستثمرة في الأوطان من هذا البلاء».